التصوف شريعة وحقيقة وإصلاح باطن

محمود جمال الدماطى

تكمن أهمية التصوف–خاصة في عصرنا الحالي– عند اندثار المعاني الروحية للإسلام، وعدم فهم مقام الإحسان، وبروز الاهتمام بالقوالب والرسوم حتى ظن البعض أن الإسلام جسد بلا روح، أو قشر بلا لب، وكان لهذا أكبر الأثر في الإنحطاط والضعف للمسلمين حيث فقدوا ما كان عليه أسلافهم في صدر الإسلام من اهتمام بالبواطن وتعمير القلوب قبل الظواهر لأنهم لا حظوا بعين البصيرة أن صفاء أعمال الجوارح نتيجة لتصفية القلوب من الشوائب، فلم يصابوا بكدر فتحققوا بمقام الإحسان الذى هو **"أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك"**. فأشرقت عليهم شموس العرفان لتطهير القلوب قبل الأبدان بما تعلموه من النبي العدنان عليه أفضل الصلاة والسلام لما أخبرهم وهو الصادق المصدوق "أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ"[1]

ولما قال عليه الصلاة والسلام "إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ"[2] علموا أن الجوارح مطيات لنواياهم وسرائرهم التي لا يطلع عليها إلا رب البرية جل جلاله، وأن ظواهرهم طوع بواطنهم.فأصلحوا نواياهم لأن بالنية تصلح أو تفسد الأعمال.

يفهم من ذلك أن هناك أعمال تتعلق بالظواهر وأخرى بالبواطن فكان التشريع الإسلامي نسيجاً متجانساً منهما، فالتكاليف الشرعية التي تعبّد بها الإنسان في خاصة ذاته ترجع إلى نوعين وإلى هذا أشار ابن خلدون "أحكام تتعلق بالأعمال الظاهرة، وهى أحكام العبادات والعادات والمتناولات. وأحكام تتعلق بالأعمال الباطنة وما يتصرف في اللب، ويتلون به من الصفات، أما المحمودة:كالعفة والعدل والشجاعة والكرم والحياء والصبر. وأما المذمومة كالعجب والكبر والرياء والحسد والحقد.وهذا النوع أهم من الأول عند الشارع،

---

[1] متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب« الإيمان» باب «فضل من تبرأ لدينه» حديث(52) ، ومسلم في كتاب «المساقاة» باب «أخذ الحلال وترك الشبهات» حديث (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

[2] أخرجه مسلم في كتاب «البر والصلة والآداب» باب «تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه» حديث (٢٥٦٤).

وإن كان الكل مهما، لأن الباطن سلطان الظاهر المستولى عليه وأعمال الباطن مبدأ في الأعمال الظاهر"[1]

تأييد ذلك ما نبه عليه العالم الرباني ابن عطاء الله السكندري في لطائف المنن"فاعلم أن الفرائض التي اقتضاها الحق من عباده على قسمين ظاهرة وباطنة، فالظاهرة الصلوات الخمس، والزكاة، وصوم رمضان، والحج، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وبر الوالدين إلى غير ذلك.والباطنة :العلم بالله، والتوكل عليه، والثقة بوعده، والخوف منه، والرجاء فيه، إلى غير ذلك، وهى أيضاً تنقسم إلى أفعال وتروك، شيء اقتضى منك الحق أن تفعله، وشيء إقتضى منك ألا تفعله، وقد جمع ذلك في آية واحدة.

قال سبحانه:{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ }[2] فهذا أمر طلب الله منك أن تفعله، ثم قال تعالى:{ وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ} فهذا أمر إقتضى منك أن تتركه" إلى أن قال رحمه الله "وأما الفرائض الظاهرة فلا تنفك عن فروض باطنة، والفرائض الباطنة شروطها وعمدة لها، وبين الفرائض الظاهرة والباطنة ما بين الظاهر والباطن"[3].

اعلم أن الظاهر كما له فقه وعلم فكذا حال الباطن له فقه وعلم وشيوخ يعملون على تنقية القلوب وليس الأمر متروك سدى إذ لو كان كذلك لادعى كل احد خلوه من العيوب وهذا نفسه من اكبر العيوب التي تحتاج لتنقية وتطهير، فقال أبى نصر السراج الطوسى بعد أن قال مثل الذى اوردناه سابقاً من أعمال الظاهر والباطن "ولكل عمل من هذه الأعمال الظاهرة والباطنة علم وفقه وبيان وفهم وحقيقة ووجد، ويدل على صحة كل عمل منها من الظاهر والباطن آيات من القرآن واخبار من الرسول صلى الله عليه وسلم علمه من علمه وجهله من جهله"[4].

ولما كان العلم الظاهر هو تصحيح الأعمال ومعرفة فقهها فقد اكتفت به طائفة ولم تر غيره، واعترضوا على من قال بأن البواطن لها علم وهو فقه يدرس ويتعلم من الشيوخ المربين، بل وانشقت من هذه الطائفة طائفة أخرى تبدّع الصوفية دون تفرقة بمن تمسك بالكتاب

[1] شفاء السائل وتهذيب المسائل، ابن خلدون، صـ٣٧.
[2] سورة النحل، أية ٩٠.
[3] لطائف المنن للعالم الفاضل تاج الدين أحمد بن عطاء الله السكندرى، حواشى المنن الكبرى للإمام الشعرانى، صـ٣٠:٣١.
[4] اللمع، لأبى نصر السراج الطوسى، صـ٤٤.

والسنة وكلام اهل العلم وهؤلاء المتزيين بزيهم ولم ينالوا من مشروبهم، ومن ثمّ لبسوا على الناس بقولهم ولم يفهموا حقيقة القوم وماهم عليه من علم واهتمام بالسرائر التي تطيعها الجوارح متى كانت الأولى مجوهرة بجواهر مرتبة الإحسان ومتمسكة بكتاب الله وسنة نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام. فقد تصدى لهم اهل العلم والعمل من شيوخ التربية والتصفية وردوا عليهم ردوداً تشفي الصدور وليس محل بسط هنا، ولكن يكفي ذكر طرف من اقوال هؤلاء العلماء العاملين لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

إن علم الباطن من علم الشريعة وأحد رافديها إذ هو علم تصحيح الآفات والعلل وتنقية النفوس من الآثام، وقد ذكر الطوسى رحمه الله بعدما ذكر ان هناك قوماً اعترضوا على أهل التصوف لما رأوه من قولهم العلم الباطن وأنهم احتجوا بقول أنه ليس لنا إلا ما جاء به الكتاب والسنة وقولهم كذلك لا معنى لقولكم . أي الصوفية . علم الباطن "فنقول وبالله التوفيق :إن علم الشريعة علم واحد، وهو اسم واحد يجمع معنين الرواية والدراية، فإذا جمعتها فهو علم الشريعة الداعية للأعمال الظاهرة والباطنة، ولا يجوز أن يجرد القول في العلم :أنه ظاهر أو باطن لأن العلم متى كان في القلب فهو باطن فيه إلى أن يجرى ويظهر على اللسان، فإذا جرى على اللسان فهو ظاهر، غير أنّا نقول أن العلم: ظاهر وباطن، وهو علم الشريعة الذي يدل ويدعو إلى الأعمال الظاهرة والباطنة"[١].

اعلم أن علم الباطن أو تصحيح القلوب يورث علم الحقيقة التي لا تخالف الشريعة كما سيتضح بمشيئة الله والحقيقة هي"أن تشهد بنور أودعه الله في سويداء القلب أي وسطه"[٢]. وقال عنها سلطان العلماء العز بن عبد السلام "والحقيقة لها شهود خارج عن طور هذا الوجود"[٣].

وقال الإمام ابن عجيبة "الشريعة عمل الجوارح، والحقيقة معرفة البواطن، فالشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهده، فالشريعة من وظائف البشرية، والحقيقة من وظائف الروحانية"[٤].

قال ابن البنا السرقسطى رحمه الله:

---

[١] اللمع، لأبى نصر السراج الطوسى، ص٤٣.

[٢] حاشية العلامة البجيرمى على الخطيب، المسماه بتحفة الحبيب على شرح الخطيب، ص١٢.

[٣] زبد خلاصة التصوف المسمى بحل الرموز، لسلطان العلماء العز بن عبد السلام، ص٢٤.

[٤] الفتوحات الألهية شرح المباحث الأصلية، لإبن عجيبة، ص٣٢٧.

أليس قد جبلت العقول على الذي جاء به التنزيل
هل ظاهر الشرع مع الحقيقة إلا كأصل الفرع في الحديقة
والشرع جار وصحيح العقل كحذوك النعل معا بالنعل
ما مثل المعقول والمنقول إلا كدر زاخر مجهول
حتى إذا أخرجه الغواص لم يكن للدر إذن خلاص
وإنما خلاصه في الكشف عن الغطاء حيث لا يستخف
فالصدف الظاهر ثم الدر معقوله والجهل ذاك البحر
وإنما المعقول في شكل الحروف كما يكون الدر في جوف الصدوف
هل ظاهر الشرع وعلم الباطن إلا كجسم فيه روح ساكن

قال العلامة ابن عجيبة في شرح هذه الأبيات قولاً في غاية الحسن والبيان، ويزيل الغشاوة عن العميان، وقد تكلم عن علم الظاهر والباطن وشبههما بمثال الجسد والروح فافهم مراد القوم "فمثال العلم الظاهر مع العلم الباطن كجسم فيه روح كامن، فالجسد لا يقوم بغير روح، والروح لا تظهر من غير جسد، وإذا خلى الجسد من غير الروح كان ميتاً ولا عبرة به، ولذلك كان من تشرع ولم يتصوف تفسق، لأن أعماله أشباح بلا ارواح، وإذا خلت الروح من الجسد بطنت ولم يظهر لها وجود، ولذلك كان من تحقق ولم يتشرع فقد تزندق"[١].

الشريعة والحقيقة متصلتان

قولهم شريعة وحقيقة لا يعنى عندهم- أي السادة الصوفية المحققين الربانيين— الانفصال بل هما متلازمتان فالثانية لا تنفك عن الأولى، والأولى لكل أحد أما الثانية فليست إلا لمن اختصهم بالحضرات القدسية والمشاهدات الربانية بأنوار الولاية المحمدية لمجاهداتهم الروحانية فتصفو الروح من الأكدار وتتعلق بخالق الدار تاركة الدار فهي في محل مهبط الأنوار والأسرار فتشاهد ما لم يشاهده من حجبته الأغيار لذا قال العز بن عبد السلام أن الحقيقة لها شهود خارج عن طور هذا الوجود، وليست هذه مرتبة سقوط التكاليف بل هي تحقيق لا ينفك عن تشريع.

[١] الفتوحات الألهية شرح المباحث الأصلية، لإبن عجيبة، مطبوع معها متن المباحث الأصلية للسرقسطى، ص٣٣٣.

قال المرحوم الشيخ عبد الواحد يحي"ثم إن الشريعة والحقيقة متصلتان إتصالاً يجعل منهما مظهرين لشيء واحد أحدهما خارجي والآخر داخلي، أو أحهما ظاهر والآخر باطن.لذلك كان ما يوجد في الغرب الآن من جماعات تدعى أنها على النهج الصوفي وهى مع ذلك لا ترتكز على أدلة شريعة إلهية مجرد خداع، ومن البديهي أن هذه الجماعات– ومن وجهة نظر الصوفية الصحيحة–ليست على شيء"[١].

يتبين من ذلك أن هذا العلم لما إهتم بالروحانية لم ينكر التشريع بل جعله أساساً لمنهجيته لذا كان عند هولاء الأكابر أن ما يخالف الشرع من كتاب وسنة يضرب به عرض الحائط ويردّ على صاحبه، فهذا الإمام الجنيد سيد الطائفة يقول: "الطُّرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفي أثر الرَّسول صلى الله عليه وآله وسلم واتّبع سنته ولزم طريقته فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه". وقال أيضاً:"من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة"[٢].

لذا فقد جعل الصوفية التشريع مدخلاً للتحقيق حتى يظل من تحقق متمسكاً بالظاهر لا ينكره ولا يدعى سقوط التكاليف كما أدعى جهلة من ارتسم بحال الصوفية والتصوف منهم براء.

قال الشيخ عبد الواحد يحي رحمه الله "ربما كانت العقيدة الإسلامية – من بين العقائد الموروثة — هي العقيدة التي يظهر فيها بوضوح التفرقة بين جزأين كاملين هما الظاهر والباطن أعنى: الشريعة وهى الباب الذى يدخل منه الجميع. الحقيقة ولا يصل إليها إلا المصطفون الأخيار. وهذه تفرقة ليست تحكمية، وإنما تفرضها طبيعة الأشياء ذلك أن استعداد الناس متفاوت، وبعضهم معدّ بفطرته لمعرفة الحقيقة.وكثيراً ما تجدهم يشبهون الشريعة والحقيقة بالقشر واللب، أو الدائرة ومركزها" إلى ان قال "على أن علم الباطن لا يعنى فقط الحقيقة، وإنما يعنى كذلك السبل الموصلة إليها، أعنى الطرق التي تقود الإنسان من الشريعة إلى الحقيقة"[٣].

---

[١] المنقذ من الضلال، مع أبحاث مستفيضة عن قضية التصوف، د/عبد الحليم محمود، ص٦٥.

[٢] سلطان العارفين أبو يزيد البسطامى، للإمام الدكتور عبد الحليم محمود، ص٥٣.

[٣] المنقذ من الضلال، مع أبحاث مستفيضة عن قضية التصوف، د/عبد الحليم محمود، ص٣٢:٣٣.

فالصوفي الحق عرف معنى حلاوة الإيمان، وسرّ المناجاة، والخلوص من رق الأغيار، وشهود المنعم، والمراقبة في الحركات والسكنات والخطرات، فعلم روح الإسلام وكيف كان الصحابة يتعاملون، وكيف بحث عن ما خفي عليهم من سرائرهم وإصلاحها حتى لا يكون فيها مدخل لشيطان ولا نفاق فكانوا ربانيين.

ولما أهمل المسلمون هذه المعاني أصبحنا في انحطاط وقد أشار الشيخ عبد القادر عيسى رحمه الله إلى ذلك بقوله "وما وصل المسلمون الى هذا الدرك من الإنحطاط والضعف إلا حين فقدوا روح الإسلام وجوهره، ولم يعد ف يهم إلا شبحه ومظاهره. لهذا ترى العلماء العاملين والمرشدين الغيورين ينصحون الناس بالدخول مع الصوفية وإلتزام صحبتهم كى يجمعوا بين جسم الإسلام وروحه، وليتذوقوا معانى الصفاء القلبى والسمو الخلقى وليتحققوا بالتعرف على الله تعالى المعرفة اليقينية، فيتحلوا بحبه ومراقبته ودوام ذكره"[١].

هذا ولتعلم علم اليقين أن الصوفية اهل علم وعمل فإنهم أول ما يعلمون أولادهم منذ نعومة أظافرهم أن الحقيقة لا تنفصل عن الشريعة، وأن من إحتج بالباطن وترك الظاهر فيبتر بسيف الشريعة، فلا يحتج بشيء من الباطن يخالف الظاهر.

وقد تعلمت من شيخي أبياتاً شرح فيها والده رحمه الله أن الباطن لا يخالف الظاهر ولا يحتج بالأول وأن من فعل ذلك أمثال الحلاج فقد قتل بسيف الشريعة:

**ومن غدا بباطن يحتج		فإنه في باطن يلـج**

**فما لغير الظاهر إنتهاج		شرعاً ألم يقتل به الحلاج**

وقد شرح هذا النظم بقوله "الله تعالى تعبدنا بالشرع الظاهر فمن ادعى أنه له باطن يخالف ظاهره فهو كافر.فلا يصح أن ينتهج الإنسان في سلوكه وتعبده غير الشريعة الظاهرة، وإلا قتل بسيوفها الباترة"وذكر قول الشيخ زاهر الجزائري: "يكفر من زعم أن للشريعة باطناً يخالف ظاهرها هو المراد بالحقيقة، فأول النصوص القطعية وحملها على غير ظواهرها كمن زعم ان المراد بالملائكة القوى العقلية وبالشياطين القوى الوهمية"[٢]وقد أفتى العلامة الدكتور على جمعه بذلك أى بكفر من قال بأن الباطن يخالف الظاهر[٣] وعلمني شيخي أيضاً :

---

[١] حقائق عن التصوف، الشيخ عبد القادر عيسى، ص١٩٥.

[٢] الجنة فى شرح عقيدة أهل الجنة، للشيخ محمد خليل الخطيب، ص٦٠:٦٣.

[٣] http://www.alimamalallama.com/faqs.php?id=34.

ومن يقل ولم يجن سقطا تكليفه فإنه قد سقطا

وشرح ذلك بقوله رضي الله عنه {قال الجنيد :الطرق كلها مسدودة إلا على من إقتفي أثر النبي صلى الله عليه وسلم وقال أيضاً لرجل ذكر المعرفة وقال :أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندي عظيمة والذي يسرق ويزنى أحسن حالاً من الذي يقول هذا وذكر قول الإمام الغزالي "لو زعم زاعم أن بينه وبين الله حالة أسقطت التكاليف فلاشك في كفره"}[1].

فالشيخ هنا يشير إلى أن لا ظاهر يخالف الباطن، ولا يسقط التكليف بحال من الأحوال إلا عمن حددهم الشرع، واختلف القول فيمن إحتج بالباطن وخالف الظاهر بين تبديع وتفسيق وكفر والأغلب قال بهذه الأخيرة إذ لم يدعى مثل هذه الحالة من الدعاوى إلا الذين أخذوا الطريق بأنفسهم لا عن مربين، وحتى أن المجذوب في مصطلح الصوفية طالما عنده إفاقة يقضى ما عليه ولا تسقط التكاليف تماماً، والكمل من المشايخ يعلمون أولادهم في بدايتهم هذه الطرق من مداخل الشيطان وضرورة عرض أفعالهم على الكتاب والسنة لذا قيل إن خالف كشفك الكتاب والسنة فأضرب به عرض الحائط فليس إلا الكتاب والسنة المحمدية.

فالحقيقة هي "**شهود الحق في تجليات المظاهر. فالشريعة أن تعبده والطريقة أن تقصده، والحقيقة أن تشهده، فلمّا تجلى الحق بين الضدين فتجلى بمظاهر عظمة الربوبية في قوالب العبودية، ظهرت الشريعة والحقيقة، فشهود العظمة من حيث هي حقيقة، والقيام بآداب القوالب عبادة وعبودية وشريعة**"[2].

والمؤيد لذلك قول الإمام العز بن عبد السلام "فالمراد من الحقيقة والشريعة إقامة العبودية على الوجه المراد منك، وكل شريعة لا حقيقة لها فهى عاطلة وكل حقيقة لا شريعة معها فهى باطلة، ومصداق ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لحارثة " كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال حارثة: أصبحت مؤمنا حقاً! قال انظر يا حارثه فإنَ لكل قول حقيقة، فما

---

[1] الجنة فى شرح عقيدة أهل الجنة، للشيخ محمد خليل الخطيب، صـ٦٠:٦٣.

[2] معراج التشوف إلى حقائق التصوف، للشيخ عبد الله أحمد بن عجيبة، صـ٧١.

حقيقة إيمانك؟! قال: يا رسول الله، عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري، وكأني بعرش ربي بارزاً، وكأني بأهل الجنة يتزاورون فيها..." .

فالشريعة حق والحقيقة حقيقتها، فالشريعة القيام بالأوامر والحقيقة شاهدة الأمر، والحقيقة والشريعة يجمعهما كلمتان وهو قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}[1]. فإياك نعبد شريعة، وإياك نستعين حقيقة، ثم اعلم أن العلم علمان علم الظاهر للشريعة وعلم الباطن للحقيقة"[2].

قال الفضيل بن عياض: العلم علمان: علم باللسان وعلم بالقلب فأما العلم بالقلب فذاك العلم النافع و أما العلم باللسان فذاك حجة الله على خلقه. واسنده الربيع في مسنده منقطعا عن جابر بن زيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال:" العلم علمان علم باللسان فذلك حجة الله على ابن آدم وعلم بالقلب فذلك العلم النافع"[3].

وقال سلطان العلماء في موضع آخر "فالشريعة إقامة بوظائف العبودية والحقيقة مشاهدة الربوبية، فالشريعة مجاهدة والحقيقة مشاهدة، ولا تباين بينهما إذ هما متلازمان. إذ الطريق إلى الله سبحانه لها ظاهر وباطن فظاهرها الشريعة وباطنها الحقيقة فبطون الحقيقة في الشريعة كبطون الزبد في لبنه"[4].

ولأن بالمثال تقرب المعاني لذوى الأفهام فقد ذكره العلامة الدكتور على جمعه في كتابه الطريق إلى الله "والظاهر في الماء مثلاً أن الذي أمامنا هو الماء، ثم عند الحقيقة تبن أنه مكون من غازين: من هيدروجين وأوكسجين، أحدهما يشتعل والآخر يساعد على الاشتعال، فوصلنا إلى شيء عجيب: هذا الذي أمامنا ماء أو نار؟!!، الظاهر انه ماء، والحقيقة أنه نار، بعض القاصرين فهموا أن هذا تعارض، والصوفية لم يفهموا هذا، بل فهموا أن الشرع الشريف إنما جاء لضبط الظاهر والباطن معاً، وأن الظاهر مهم، وأن تاركه كافر، ولكن هذا لا يمنع أن تكون هناك حقيقة، وأن هذه الحقيقة نتعمق فيها، ونكتشفها شيئاً فشيئاً، وكلها لا تكر على الظاهر بالبطلان، فلو جاء واحد وقال: أنا لا أتوضأ ...فقلنا له لماذا لا

---

[1] سورة الفاتحة، آية ٥.

[2] زبد خلاصة التصوف المسمى بحل الرموز، لسلطان العلماء العز بن عبد السلام، ص٢٥.

[3] نسبه البيهقى فى الشعب للفضيل، مسند الربيع - (ج ١ / ص ٣٦٥).

[4] زبد خلاصة التصوف المسمى بحل الرموز، لسلطان العلماء العز بن عبد السلام، ص٢٤.

تتوضأ؟! فأشار إلى الماء وقال :لأن هذا نار، وأنا أخشى على جلدي أن يحترق..فإنا نعده من المجانين، لأن هذا ماء وليس ناراً، وإن كان هو من نار، ....."[1].

فكل مشايخ أهل الطريق إلى الله قالوا يتلازمهما وما خالف إلا المضلّون الذين فرحوا بظاهر الطريق ولم يحفظوا آدابه التي اولها التمسك بالشرع والعمل بما جاء به التنزيل، فهو مبنى على تطهير النفوس، فعلم التصوف علم معرفة آفات القلوب والنفوس من كبر وحقد وحسد، لذا تبين أنه روح الإسلام فبعد المعالجة لأمراض الباطن وهى التخلية تتم عملية التحلية بالفضائل فتشرق شمس المعرفة الربانية، وأقمار التوحيد على قلوب العبيد، فيتجلّى لهم الله بلا أين ولا كيف، تجلى فيه معنى الربوبية والعبد يرى نفسه في مقام العبودية، فيعرف الله ويعرف نفسه فلا ينشغل بغير الله، فيرى في نفسه الضعف ويرى القوة لله ويرى في نفسه الفناء ويرى الديمومية لله،فهو لله وبالله ومع الله ولا يرى إلا الله، وهو بين شهود جمال وشهود جلال.

ولله در من قال[2]:

ويبدو بأوصاف الجمال فلا يرى — برؤيته شيــــئاً ولا ردى
فلمّا تجلى لى على كل شاهد — وأشهدنى بالحق في كل مشهد
تجنّبت تقييد الجمال ترفعاً — وطالعت أسرار الجمال المبدّد
ففي كل مشهود لقلبى شاهد — وفي كل مسموع له لحن معبد
وصار سماعى مطلقاً منه بدؤه — وحاشى لمثلى من سماع مقيد
أراها بأوصاف الجمال جميعها — كمنحة مهجور ومنحة مسند

وقيل أيضاً[3]:

وحرمة الودّ مالى عنكم عوض — وليس لى في سواكم بعدكم غرض
ومن جنونى بكم قالوا بها مرض — فقلـت لا زال عنى ذلك المرض

---

[1] الطريق إلى الله، لفضيلة الإمام العلامة نور الدين على جمعه، صـ٢١.
[2] القصد المجرد، للعارف بالله أحمد بن عطاء الله السكندرى، صـ٩٨.
[3] المرجع السابق، صـ٦٠

وقد أسردت لك ما منّ الله به على عبده الفقير لتتأكد أننا فقدنا روح الإسلام اللهم إلا فئة تدعو إلى الله على بصيرة، فئة تطهرت من الآثام والعيوب وبلغوا حقيقة الإيمان وأنتهجوا مناهج الإحسان، وفي هذا قال ابن البنا السرقسطى في مباحثه الأصلية:

قد رفضوا الآثام والعيوب   وطهروا الأبدان والقلوب

وبلغوا حقيقة الإيمـــان   وإنتهجوا مناهج الإحسان

فقال العلامة ابن عجيبة قدس الله سره:"وقوله وطهروا الأبدان والقلوب تفسير لما قبله على طريق اللفظ والمعنى وطهروا الأبدان من الآثام والذنوب، وطهروا القلوب من المساوئ والعيوب، فلمّا حصل لهم هذا التطهير المجيد لاح لهم قمر التوحيد فأسلموا الأمر إلة مولاهم ورجعوا إلى من قد تولاهم عملاً بقوله تعالى {وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ }[1]،

فلمّا تحققوا بذلك وقفوا في رياض الإحسان وأشرقت عليهم شموس العرفان، وأضاءت لهم أنوار المواجهة والعيان"[2] .

وكذا يتبين أن اعتراض البعض على الصوفية، بل ومحاولة إبعاد المسلمين عن روح الإسلام، هو اعتراض مردود عليهم، وقد كشف سر الالتباس الإمام السيوطى رحمه الله في كتابه "**تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية**" وذهب إلى ان جوهر الخلاف هو المصطلح الذى إستعمله الصوفية لكل مقام فبفهمه يزيل الإشكال وتنجلي عرائس المعاني من مكنونات أسرار الألفاظ فقال: واعلم أن دقائق علم التصوف لو عرضت معانيها على الفقهاء، بالعبارة التي ألفوها في علومهم لاستحسنوها كل الاستحسان وكانوا أول قائل بها، وإنما ينفرهم منها إيرادها بعبارة مستغربة لم يألفوها، ولهذا قال بعضهم: الحقيقة أحسن ما تعلم، وأقبح ما يقال. وأنا أورد لك مثالا تعرف (منه) صحة ذلك.

قال في منازل السائرين:حقيقة التوبة ثلاثة أشياء: تمييز الثقة من العزة، ونسيان الجناية، والتوبة من التوبة أبدا. فإذا سمع الفقيه هذا اللفظ، وهو "التوبة من التوبة" استغربه جدا، وقال: كيف يتاب من التوبة، وهي عمل صالح، وإنما يتاب من المعاصي.

---

[1] سورة لقمان، آية٢٢.

[2] الفتوحات الألهية، لإبن عجيبة، صـ٦٢.

وتقرير معناه: أن العبد إذا كمل في رجوعه إلى الله لم يلتفت إلى أعماله، ولم يسكن إليها بقلبه، توبة كانت أو غيرها، فيتوب من سكونه إلى توبته.

ويزاد إيضاحا أن التوبة وإن كانت من كسب العبد فهي من خلق الله وتوفيقه، فهو التائب عليه، ولو لم يتب عليه لما تاب، قال تعالى: {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ} فأي صنع للعبد في التوبة أو غيرها،لا وهو الذي وفقه الله لفعلها؟ فرؤية العبد التوبة من نفسه ذنبه يستغفر منه، بل عليه أن يشهد محض منة الله عليه بها، وتوفيقه لها، ويلغي نفسه أصلا عن درجة الاعتبار. وهذا مقام الفناء في التوبة، وهي أول منازل السائرين، ويقاس به مقام الفناء في التوحيد، فلا يشهد في توحيده صنعا، بل محض منة الله عليه به وتوفيقه.

وهذا المعنى إذا عرض على الفقيه بهذه العبارة المألوفة كان أول قائل به وناصر له، لأن الفقيه السني يقاتل على إثبات الأفعال لله ونفيها عن العبد، مخالفة للمعتزلة والقدرية ونحوهم، ممن زعم أن العبد يخلق أفعاله".

فالتصوف ليس مجرد أوراد وأذكار بل حالة من الصفاء النفسي المنقى من الشوائب، فتراه على جوارحك وأركانك علم وعمل سمو قلبي وروحي، ولهذا أشار الشيخ عبد القادر عيسى رحمه الله "فالتصوف هو الذى اهتم بهذا الجانب القلبي بالإضافة إلى ما يقابله من العبادات البدنية والمالية، ورسم الطريق العملي الذي يوصل المسلم لأعلى درجات الكمال، الإيماني والخلقي، وليس - كما ظن الناس – قراءة أوراد وحلق ذكر فحسب، فلقد غاب عن أذهان الكثيرين أن التصوف منهج عملي كامل، يحقق انقلاب الإنسان من شخصية منحرفة إلى شخصية مسلمة مثالية متكاملة، وذلك من الناحية الإيمانية السليمة والعبادة الخالصة والمعاملة الصحيحة الحسنة، والأخلاق الفاضلة، ومن هنا تظهر اهمية التصوف وفائدته، ويتجلّى لنا بوضوح أنه روح الإسلام وقلبه النابض، إذ ليس هذا الدين أعمالاً ظاهرية وأموراً شكلية فحسب لا روح فيها ولا حياة"[١] .

---

[١] حقائق عن التصوف، الشيخ عبد القادر عيسى، ص١٨.